٨. سهولة اللة والاسلوب : ان شعر عمر تغلب عليه السهولة في اللغة والاسلوب ويرجع ذلك لاسباب اهمها طبيعة شعر الغزل نفسه فهو شعر يتصل بالعواطف والانفعالات المشتركة بين الناس ومن ثم لايكثر فيه الغريب من اللفظ ولاتتنوع فيه التراكيب تنوعها في غيره . فضلا ان عمر واضرابه قد هجروا الى حد ما الاساليب القديمة وهجروا الالفاظ الغريبة وبنوا شعرهم بناءا سهلا يتلائم وحياة الناس الحديثة التي تحضرت حتى يقتربوا منهم ومن لغتهم اليومية . وبقي ان نقول ان غزل عمر تغلب عليه الفصاحة وسلامة اللغة .

.....

الغزل العذري (العفيف) وينسب الى بني عذرة

الغزل العذري : هو حب نقي شريف يهوى فيه الرجل امرأة اطول حياته ويهلك في سبيل حبها .

ويتمثل هذا اللون من الغزل في شعر طائفة من الشعراء عاشوا جميعا في عصر واحد هو العصر الاموي وتنقلوا في بيئات واحدة او متقاربة في وديان البادية الخصبة بالحجاز او المتداخلة في بوادي نجد القريبة منها ونذكر منهم جميل بن معمر الذي احب بثينة وتوبه بنت حمير العقيلي الذي احب ليلى وقيس الكناني الذي أحب لبنى وعروة بن حزام الذي احب ابنة عمه عفراء .

هؤلاء الشعراء عرف بعضهم بعضاً وتناشد بعضهم اشعار بعض وانصرفوا انصرافاً يكاد يكون تاما عما كان المجتمع العربي يضطرب فيه من احداث كبرى وصراعات عنيفة في ميدان السياسة او غير ميدان السياسة كما انصرفوا غالبا عما اعتاد غيرهم من الشعراء ان يلتفتوا اليه من تجارب في الوصف او الرحلة او المدح او الرثاء وداروا جميعا في فلك تجارب واحدة تقريبا هي تجارب العشق المقترن باللوعة والاخفاق والحرمان وتشابهة تجاربهم في اطارها العام مع بعض الاختلاف اليسير في التفاصيل والبدايات والنهايات .

وينسب الغزل العذري الى بني عذرة ،وهي احدى القبائل اليمنية التي هاجرت قديما الى شمال الجزيرة العربية واشتهرت بالعشق العذري والغزل المنبعث عنه فنسبا اليها حتى قالوا : ((ليس حي اصدق في الحب من بني عذرة ، ولاتضرب الامثال فيه الى بهم)) .

ويروي الرواة اخبار طريفة حول شهرة هذه القبيلة بهذا اللون من العشق والغزل منها مايروى عن عروة بن الزبير بن العوام احد فقهاء المدينة السبعة انه قال لعذري : انكم ارق الناس قلوبا (يريد اصباهم الى العشق) فقال : والله لقد تركت ثلاثين شابا خامر هم السل (يعني مهزولين) وما بهم الا دار الحب ولان هذا اللون من الغزل قد يشكل ظاهرة عامة في العصر الاموي حاول جماعة من الباحثين ان يجدوا لظهوره تفسيرات تتصل لذلك العصر وطبيعة حياة اهله الدينية والساسية والاجتماعية والحضرية .

.....

صفات شعر الغزل العذري :

١. ان شعر العزل العذري ينصرف بصورة عامة الى التغزل بحبيبة واحدة لايعدوها ولا يتسع لغيرها وافراد القصيدة بحبيبة واحدة هو من باب الصدق في التعبير او من باب صدق مشاعر الحب .

يقول جميل بثينة :

ضمنت لها ان لا اهيم بغيرها وقد وثقت مني بغير ضمان

ويقول كثير مخاطباً عزة :

واقسم ما استبدلت بعدك خلة ولا لك عندي في الفؤاد قسيم

٢. ان شعراء الغزل قصروا معظم نتاجهم الشعري على التغزل في حبيباتهم يديرون حولهن هذا الشعر منهم جميل الذي لانجد له في ديوانه شعراً في غير الغزل ، اللهم مقطعات قليلة في المدح والهجاء والفخر وبعضها شديد الاتصال بغزله إذ كان هو السبب فيها والباعث عليها . ومنهم قيس بن ذريح وبين ايدينا ديوانه المجموع وليس فيه بيت واحد في غير الغزل ولم يروي واحد من رواة اخباره انه قال شعراً في غرض واحد ومعنى هذا انه وقف موهبته على هذا الفن فلم يعده . وما قلناه عن ديوان قيس ابن ذريح ينطبق تماما على ديوان مجنون ليلى فشعره المجمع يخلو من غير الغزل وما يتصل به . وهذا التخصص في الغزل العذري شبيه بما رأيناه من تخصص في الغزل الحضري الحسي وكلاهما تطور جديد يمتاز به الغزل الحجازي في البادية والحضر في العصر الاموي .

٣. تشابه اشعار العذريين بعامة ، فقد كان لدوران قصة العشق عندهم داخل اطار محدد وعلى نمط مألوف في حياة هؤلاء العشاق اثره في تشابه معانيهم وعناصر تجاربهم من ما ادى الى اختلاط غير قليل في اشعار بعضها ببعض فنرى ابياتا لشاعر قد اقحمت على قصيدة لشاعر آخر ونرى ماينسب الى احدهم في مصدر ينسب الى غيره .

٤. ان شعر الغزل العذري بصورة عامة يهتم بتصوير الالام والذكريات الحزينة ولهذا فهو يمتاز بمعانات قاسية وبحرارة العاطفة وصدق الشعور والبكاء الشديد والحزن العميق والالم المتواصل والسقم المضني حتى ليخرج صاحبه احياناً عن طوره ويفقده توازن نفسه فيجن جنونه او يتمنى الموت لانه ارحم من حياة قاسية تحكم بينه وبين الحبيب بالتباعد والشتات .

يقول قيس بن ذريع :

لقد عذبتني يا حب لبنى فقع اما بموت او حياة

فان الموت اروح من حياة تدوم على التباعد والشقاق

وفضلاً عن ذلك يقوم شعر الغزل العذري على المودة الصافية والبعد عن الفحش . يقول جميل :

واني لاغض الطرف عنها تسترا ولي نظر لولاء الحياة شديد

٥. ان شعر الغزل العذري قلما يعتمد على اسلوب الحوار وهذا راجع الى الصد الذي كان يلاقيه العذريون من صواحبهم وما ترتبت عليه من ندرة اللقاء والوصل . وجميل اكثر زملائه التفاتا لهذا الاسلوب في ادائه الشعري اذ حاول ان يرسم بعض المواقف الحوارية بينه وبين بثينة يقول :

اذا قلت : مابـــي يابثينـــة قاتلـــــي من الحب قالت : ثابت ويزيد

وان قلت : ردي بعض عقلي اعش به مع الناس قالت : ذاك منك بعيد

غير ان هذا الحوار لايمثل عنصرا فعالا في بناء العمل الفني وانمائه عند العذريين لضعف عنصر الحديث وقلة الشخصيات في تجاربهم اذ يقتصر الحوار على شخصين وغالبا مايكونان الشاعر وصاحبته .

٦. تتميز القصيدة العذرية بوحدة الموضوع اي انها تبحث في موضوع واحد هو الغزل من اولها الى اخرها ولكنها يتفاوت لفظها من حيث وحدة البناء الفني من حيث ترتيب ابياتها وتماسكها فتبرز هذه الوحدة وتتضح في بعضها ويقل خطها من التماسك في نماذج اخرى بل قد تختلف من شاعر الى آخر ، كما يختلف في القصائد الطوال عنها في القصائد الاقل طولا . وبصفة عامة كلما طالت القصيدة العذرية

،قل تماسكها ،واختل ترتيب اجزائها ،واصبحت كيانا يضم جزئيات شعورية متناثرة لايربط بينها الاطبيعة التجربة العاطفية العامة بحيث تمكن المخالفة في ترتيب عناصرها او اسقاط بعضها دون ان يلاحظ هذا النقص فيها . أما المقطعات العذرية فهي اقوى نماذج الغزل العذري تحقيقا للوحدة الصورية والفنية واوفرها حظاً منهما لانها تعالج في الغالب خاطرة واحدة او حالة نفسية متميزة الى حد ما .

٧. تتميز لغة شعر الغزل العذري بالبساطة والوضوح والبعد عن التكلف والتعسف في المعنى او اللفظ فضلا عن بساطة ووضوح في الصورة الشعرية .

٨. شيوع الالفاظ والمعاني الاسلامية في شعر الغزل العذري ومن ذلك على سبيل المثال قول قيس بن ذريع :

الى الله اشكوا فقد لبنى كلها شكى الى الله فقد الوالدين يتيم

وقول جميل :

اصلي فابكي في الصلاة لذكرها لي الويل من ما يكتب الملكان

وقول عروة بن حزام :

واني لاهوى الحشر ان قيل انني وعفراء يوم الحشر ملتقيان

ان اقدم الشعراء العذريين على الاخذ من تعابير القرآن ومعانيه ليس مرجعه بالضرورة الى التقوى والايمان بل مرجعه الى البراعة في استخدام الادوات الفنية التي تساعدهم على التعبير عن نواجدهم وتجويد اشعارهم .

جميل بن معمر

وهو جميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث بن ظبيان العذري ، روي ان والده مرى يدعى عبد الله واخرى معمرا وتارة لقبه الحارث وطرورا صبيح واختلفت الروايات في شأن هذا الوالد فرواية تقول : انه كان عزيزا في قومه مقدما في عشيرته يحسب له في بطون قضاعة كلها حساب كبير وكان الناس يشكوه في امر ولده جميل فيوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ، ورواية ثانية تقول : انه كان فقيرا يكاد يكون عاديا ورواية ثالثة تقول : انه كان لصاً . وروى ابو الفرج الاصفهاني ان عبد الله كان صريحا مع ابنه اذ هو يناقشه في اموره الخاصة مناقشة لاتعرف المداورة يخلص له النصح في لهجة الخبير واسسلوب المجرب الحكيم . اما والدة الشاعر فهي من قبيلة جذام التي يقال انها يمنية الاصل وكانت حليفة للامويين في فتوحاتهم . وبذلك يكون جميل قريبا من الامويين من ناحية امه جديرا بعطفهم لعلمهم بمكانة اخواله لدى هؤلاء الحاكمين فيقصدهم في دارهم ينشدهم مدحه

ويسمعهم نسبه . وكان جميل معجبا باخواله معتزا بهم يمدحهم بشعره فيجزونه بثناء واذا حاول احدهم ان ينال منهم فانه يتصدى له ويرد عليه بعنف واقذاع . ولم يذكر الرواة شيئا عن علاقة ام جميل بولدها . واكبر الظن انها ماتت وهو صغير كان جميل في بدء حياته الشعرية مداحا ذائع الصيت في قومه وهجاءً يخشى الناس صولة لسانه وانه قبل شهرته بالمدح والهجاء كان يعيش في كنف قبيلته في مطاف بني عذرة على غرار البادين من الاعراب يرعى الماشية في وادي القرى او وادي بغيض ويخرج للهو في المناسبات والاعياد . ويروى انه قصد المدينة في ولاية سعيد بن العاص والتقى هناك الشاعر هدبة بن الخشرم وزاره في سجنه وكان جميل في اول امره راوية له يصحبه ويلازمه في سفراته وتنقلاته . ويظهر من اوصاف جميل في اخباره وبعض شعره انه كان حلو القسمات طويل القامة عريض المنكبين تياها بهندامه منظروا اليه في عزته وعزة قومه تعجب النساء به فيتمنن لو يميل اليهن ويعشقهن حتى ان بعضهن اثارة غيرة الرجال من طريقه فقد غضب الشاعر كثير وغار لما اطالت حبيبته عزة النظر الى جميل وكان هذا جميلا وكثير دميما فلم يطق حاله فدعاه الى الانطلاق . كان جميل كريم النفس ينفق من سعته على البائس والمحروم ويهب من يحيه من الشعراء المنح البرود وكثيرا ما كافئ الوسطاء بينه وبين صاحبته بمنح العطايا وخلفه مايملك من برود . كان جميل فارسا شجاعا كثير الاعتداد بنفسه وان رجولته هي التي فتنت بثينة فتعلقت به واحبته الا ان هذا الحب لم يصل الى النهاية التي ارادها كل منهما وليس مايشير في سيرة جميل الى تعاطيه السياسة او اهتمامه بشؤون السياسة ولكنه كان على اتصال بالخلفاء الامويين وامراءهم وعمالهم ينشدهم الشعر من غزل ومدح ويخرج موفور العطايا والهبات وقصة حب جميل وبثينة معروفة في كتب الادب القديمة والحديثة وملخصها ان جميلا وبثينة تقابلا ذات يوم فوقع الحب بينهما فتقدم جميل في ريعان شبابه لخطبة بثينة فرده ابوها وزوجها رجلا يدعى نبيه بن الاسود وهو اعور دميم فسقط جميل على وجهه من فداحة المصاب وبلاغة الجرح وراح ينجر عواطفه الذائبة في شعر بديع وانغام كأيبة ساحرة . ولم ينقطع جميل مع ذلك عن بثينة فلقد ظل متصلا بها في الخفاء حتى بعد زواجها وقد شوهدا معا غير مرة في بيت زوجها وبقي جميل ينشد الشعر مترجما ما يكابده من الالام والعذاب فنصبتاً الى عذاله ولائميه ملتمساً لقلبه الاعذار لان الحب الذي مني به قضاء كتب عليه وقدر محتوم . ويواصل الدهر معاداته للشاعر الرقيق فتحدث الفجوة بين اهله واهلها وينشب القتال بين قومه وقومها لان الشاعر مصر على زيارتها مهما كانت الاخطار واهلها مصرون على منعه مهما كانت العواقب حتى اذا بلغ العناد منه حدا بعيدا شكوه الى السلطان (الخليفة) فأهدر دمه . ولم يتفق الرواة على تسمية السلطان الذي استحل قتله ان هو الم بحي بثينة فتارة هو مروان بن الحكم والي المدينة وطورا هو عامر بن ربعي وكانت اليه بلاد عذرة ومرة ثالثة هو مروان بن هشام الحضري وكان واليا على تيماء .

ويحدث بعد ذلك ان تحب بثينة رجلا آخر يدى جحده الهلالي فطلب منها ان تصارح جميلا لتركها وتغيرها عليه فقالت او قيل على لسانها :

الم تر ان الماء غير بعدكم وان شعاب القلب بعدك حلت

فاجابها جميل وقد علم ما تريد :

فان شعابك حلت فالشعاب كثيرة وقد نهلت منها تلوحي وعلت

فيزداد الم جميل ويعمق جرحه فيسيل شعرا داميا يعاتب به بثينة على ما تبديه من الانصراف عنه ازء ما يبديه من الاقبال عليها . ويجد الشاعر نفسه مضطرا الى ان يضرب في البلاد الواسعة متنقلا بين الشام واليمن والحجاز الى ان يترل مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان ويثوي فيها ثواء لارجعة بعده . وتبقى حكاية جميل وبثينة مثار الاعجاب والشك وان الشك يمتد ويتسع حتى يبلغ نطاقه الاشخاص احيانا فيشك العلماء بوجود المجنون ويضطرهم ذلك الى افكار ليلى واعتبارها شخصية وهمية نسجتها اخيلة الرواة بل هم يشكون بكل النساء اللواتي ذكرهن الشعراء ولايستثنون منهم حتى بثينة صاحبة جميل .

****

اهم خصائص شعر جميل :

١. ان شعر جميل ينصرف الى التغزل بحبية واحدة وافراد القصيدة لحبيبة واحدة هو من باب الصدق في التعبير او من باب صدق مشاعر الحب . يقول جميل :

الا ليت ريعان الشباب جديد ودهرا تولى يابثين يعود

ويقول من قصيدة اخرى :

لقد فرح الواشون ان صرمت حبلي بثينة او ابدت لنا جانب البخل

او اني لا القى بثينة مرة من الدهر الا خائفا او على رحل

٢. ان شعر جميل يفيض بالبكاء والحزن اي ان جميلا يظهر عاشقاً متالماً فيه خصائص باكية فالبكاء واللوعة والحزن سمات متكررة في اكثر معانيه فهو عاشق باك او حزين ولو ان الحزن والبكاء قد يشكلان ميزة تعبر عن صدق الحب وصدق العواطف . يقول جميل :

يقولون مهلا ياجميل وانني لاقسم مالي عن بثينة من مهلِ

اذا ما تراجعنا الذي كان بيننا جرى الدمع من عيني بثينة بالكحل

٣. ان شعر جميل لايخلو من المبالغات وتصوير مشاعر الحب الصادقة ، وهذه الميزة تعبر عن صدق المشاعر . يقول جميل :

فلو تكشف الاحشاء صودف تحتها لبثينة حب طارف وتليد

ويقول :

هي البدر حسنا والنساء كواكب وشتان مابين الكواكب والبدر

لقد فضلت حسنا على الناس مثلما على الف شهر فضلت ليلة القدر

٤. ان لغة شعر جميل خالية من كل تعقيد لفظي بعيدة عن كل تكلف انما تمتاز بالبساطة والوضوح لانه تعبر عن موضوع يمثل الرقة والعاطفة فيه المحل الاسمى

٥. ان قصيدة جميل ذات اسلوب وصفي اي انها تجنح الى وصف الذكريات على هيئة احاديث او لحظات مرت بالشاعر فاحسها وعاشها وعبر اخيرا عنها . واهم ظاهرة لهذا الاسلوب الوصفي هو الاهتمام بوحدة البيت لذا فاننا نستطيع بسهولة ان نقدم وناخر في بعض ابيات القصيدة فلا يختل المعنى .

٦. نلمح في شعر جميل الفاظا ومعان اسلامية من ذلك على سبيل المثال قوله :

لقد فضلت حسنا على الناس مثلما على الف شهر فضلت ليلة القدر

فهو صدى قوله تعالى : ((**ليلة القدر خير من الف شهر**)) .

وقوله :

اصلي فابكي في الصلاة لذكرها بي الويل من ما يكتب الملكان

والحق ان الدين لايعني للشاعر الا بقدر ماله من صلة موضوعه وتنويعه واقتباس جميل من تعابير القرآن ومعانيه مبينة في تدريج غزله وتلوينه ومده باساليب فنية صالحة وغناء شعره وتجويده . ان شعر جميل كان يغني كثيرا كشعر عمر بن ابي ربيعة وذلك لبساطته وبعده عن غلظة الحرف ونقرة الكلمة وثقل التركيب ومع ذلك لانجد في ديوانه هذا التنويع في الاوزان على غرار ما تلقاه عند عمر ولانجد البحور المجزوءة او الخفيفة كما هو شائع عند المغنين الحجازيين . أن معظم شعره جاء من البحر الطويل والكامل والوافر والبسيط والموجز والخفيف والمتقارب . فنسبة الاوزان الخفيفة في شعره ضئيلة جدا بالقياس الى البحور الطويلة .

****

قصيدة جميل ((الدالية))

الا ليت ايام الصفاء جديد ودهرا تولى يابثين يعود

الى قوله :

الم تعلمي يا ام ذي الودع انني اضاحك ذكراك وانت صلود

ملاحظة :

١. تقرأ هذه القصيدة في الديوان والكتاب المقرر (الامالي في الادب الاسلامي).

٢. يحفظ منها ما لايقل عن عشرين بيتاً .